

من كتب الشرق والغرب

الانسان والعالم

في نظر الراغب الأصفهاني

ما الإنسان ؟ ولماذا وجد على ظهر الأرض ؟ وما الغاية من حياة الإنسان ؟ وما مصير العالم ؟ وما صلة الفرد بالمجتمع ؟ هذه كلها أسئلة تطوف بذهن كل شخص اليوم ، وطافت بأذهان الناس منذ عرفوا التفكير ، وسوف يعرضها الإنسان لنفسه في المستقبل ما دامت الحياة موجودة .

وإذا كان العلم الحديث قد سجل تقدماً عظيماً منذ القرن الماضي ، إذ أصبحت علوم الأقدمين مما لا يؤبه لها ولا يعتد بها ، فإن الأخلاق أو العلم بما يجب أن يكون عليه سلوك الإنسان ، والفلسفة وهي العلم بالأسباب الأولى والغايات الأخيرة من الحياة ، لم يتقدما كثيراً عما وصل إليه القدماء . وتقصد بالعلم الحديث علوم الطبيعة والحياة ، وهي التي تعتمد على مشاهدة الظواهر الكونية وتسجيلها واستنباط القوانين التي تحكمها ثم تسخيرها لمصلحة الإنسان .

وقد لا يخلو من فائدة أن نرجع إلى آراء المفكرين الذين نظروا في مسائل الأخلاق والفلسفة ، وهي مسائل أصبحت شبه ثابتة في تاريخ البشر . ومن الخير لنا في نهضتنا الحديثة أن نلتفت إلى الوراء قليلاً لنشهد آثار أعلام الفكر من العرب والمسلمين .

وأحد هؤلاء الأعلام الذين لم يلتفت إليهم كثير من المحدثين فيما أعتقد : أبو القاسم الحسين بن محمد بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني .

١

كان العصر الذي يعيش فيه الراغب الأصفهاني ، وهو القرن الخامس الهجري إذا تجاوزنا عن السنتين اللتين قضاها في مستهل القرن السادس ، كان عصراً

زاهراً من الناحيتين العلمية والأدبية ، ولو أنه كان متأخراً سياسياً . فثد القرن الرابع ، بل قبل ذلك أيضاً ، انحلت الخلافة العباسية ، هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف ، المتسعة النواحي ، فقام على أنقاضها دويلات كثيرة في شتى الجهات ، نفوذ الأمراء فيها هو النفوذ الأول ، ولم يبق للخليفة في بغداد إلا الاسم . وكانت الدولة الفاطمية في مصر هي صاحبة السلطان .

وظهرت على المسرح الإسلامى ألوان من الثقافات المتعارضة في أصولها ، بعضها عن الهند ، وبعضها الآخر عن الفرس ، وبعضها الثالث عن اليونان . ونحن نعلم أن الترجمة بدأت منذ القرن الثانى ، واستمرت قوية طول القرن الثالث ، وأتمت في القرن الرابع ، الذى يعد بحق أزهى عصور المسلمين حضارة . ولم يكن من السهل أن تصهر هذه الألوان المختلفة من الثقافات في بوتقة الإسلام ، فلم يكن من الغريب أن تقرأ لابن مسكويه مثلاً في القرن الرابع كلاماً فلا تشك أن كاتبه يونانى إلى جانب آراء مستمدة من الشريعة الإسلامية الخالصة . كان الإسلام حديث عهد بهذه الأفكار الغربية عنه . فإذا بلغنا القرن الخامس رأينا هذه الأفكار الغربية أصبحت مألوفاً ، وعاشت في صحة ومودة مع الأفكار الإسلامية الصميمة ، وامتزجت آراء الفرس والهند واليونان بشريعة المسلمين امتزاجاً لا تحس معه تلفيقاً أو توفيقاً ، مما تجده ظاهراً عند أولئك الذين ألفوا في القرن السابق .

على أن المقدرة على تمثيل المعلومات المختلفة لا تتوقف على الزمن وحده ، بل على حرية الكاتب ونفاذ فكره وقدرته التركيبية التى ينظر منها إلى الحياة . وهناك مؤلفون عاشوا بعد الراغب ، واستفادوا من كتبه ، ومع ذلك لم يكونوا قادرين على هضم أو تمثيل الآراء الصادرة عن بيئات مختلفة . ومن هؤلاء الغزالي ، حجة الإسلام الذى نال شهرة عظيمة لا يزال يتمتع بها حتى الآن ، فإنك تجد في أغلب مؤلفاته الأخلاقية كالأحياء فصولاً غريبة كل الغرابة عن الروح الإسلامى ، وتحس وأنت تقرأها أنك قد انتقلت من جو إلى آخر ، ومن أسلوب إلى أسلوب .

وليس الأمر كذلك مع الراغب الأصفهاني ، لأنه لم يبتغ شهرة ، ولم يطلب قرباً من ذوى النفوذ ، كما أنه أراد وقد أوشكت حياته على الفناء أن ينظر في أمور هذا الإنسان ، وصلته بالعالم الذى يعيش فيه ، نظرة تجمع بين ماطلع

عليه من فلسفة اليونان ، وحكمة الهند ، وأدب الفرس ، ودين المسلمين ، إلى خبرة واسعة وتجربة صادقة .

لهذا كله تجدد في كتاب الذريعة آيات من القرآن ، وأحاديث للرسول ، ومأثورات لعلي بن أبي طالب ، ولمحات من تفكير سقراط وأفلاطون ، إلى جانب أشعار تدل على قدم راسخة في الأدب وذوق رفيع في الفن .

ومن الواضح أن الراغب يقصد من تأليف هذا الكتاب تقع العامة أو الجمهور ، ولهذا نهج الأسلوب السهل . ومن اليسير أن تتصور الطبقات التي انقسم إليها المجتمع في عصره ، فهم الأمراء ومن في منزلتهم ، والعلماء ، والعامة . ولقد قسم الراغب المجتمع أقساماً مختلفة بحسب وجهات النظر ، فقال : الناس حزبان خاص وعام ، فالخاص من قد تخصص من المعارف بالحقائق دون التقليدات . والناس من وجه آخر ثلاثة ، خاصة وعامة وأوساط . فالخاص هو الذي يسوس ولا يساس ، والعام هو الذي يساس ولا يسوس ، والوسط هو الذي يسوسه من فوقه ، وهو يسوس من دونه . والناس من وجه آخر ثلاثة أحزاب ، أصحاب الشهوات ، وأصحاب الكرامة والرياسة ، وأصحاب الحكمة . ومن وجه آخر ، ملكي وشرطاني وإنسي . فالملكي الذي يستعمل القوة العاقلة بقدر جهده ، والشرطاني الذي يستعمل القوة الشهوية ، والإنسي الذي يخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

وسواء أخذنا بتقسيمات الراغب ، أم بالتقسيم الذي اقترحه من قبل مما ينطبق على الواقع ويستمد منه ، فمن السهل علينا أن نتصور أن المؤلف سوف ينتصر لطبقة العلماء . ذلك أن المجتمع الإسلامي بدأ في الانقسام إلى طبقات منذ القرن الأول الهجري ، مع أن الإسلام في جوهره دين الديمقراطية الصحيحة ، أو دين الطبقة الواحدة ، كما هو واضح من القرآن وهو الأصل الأول من أصول الدين ، ومن سيرة الرسول عليه السلام الذي كان يخفف نعله ويرقع ثوبه ، ويشارك قومه كبيرهم وصغيرهم في كل شيء . ولما ظهرت طبقة الأمراء ، على الخصوص في الدولة العباسية التي جرت في ذلك على سنة الفرس ، كانوا يقدمون العلماء ، ونقصد بهم علماء الدين بطبيعة الحال ، ويقدمونهم عليهم ، ويتزولون لهم عن الصدارة ؛ لأن الخلفاء والأمراء كانوا أنفسهم من العلماء الذين يعرفون للعلم حقه ويقدرّون له منزلته . حتى إذا بدأ المجتمع في الانحلال والفساد ،

نزلت درجة العلماء ، فاحتاج أحدهم وهو الراغب الأصفهاني أن يدافع عنهم ، وهو في هذا الدفاع إنما يدافع عن نفسه أيضا . ولو كانت منزلة العلماء في الدرجة الأولى كما كانت من قبل ، ما كان بالكتاب حاجة إلى التنبيه على ذلك وإلى الدفاع عن أنفسهم .

قال الراغب في خطبة الكتاب : « كن أيها الأخ عالماً ، وبعلمك عاملاً ، تكن من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . وقال : « واعلم أنه قبيح بذى العقل أن يكون بهيمة وقد أمكنه أن يكون إنساناً » . وقال : « وإن أردت أن تعرف بقاء العلماء الاتقياء فاعتبر ما قال أمير المؤمنين على كرم الله وجهه : مات خزان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر » .

٢

لم وجد الإنسان وما غايته من الحياة ؟
هذه هي المسألة المشكلة حقاً . ولقد اختلفت إجابات الناس عنها باختلاف الأمم والعصور والثقافات . غير أن إحدى هذه الإجابات ما تجده عند أصحاب الديانات السماوية ، وما تجده في الإسلام واضحاً لا سبيل إلى الشك في تأويله . فالغاية من خلق الإنسان عبادة الله ، وفي ذلك قال تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » .

ولقد سادت في هذا العصر الذي نعيش فيه موجة من الإلحاد أو الزندقة أو الشك ، فأنكر الناس أو شكوا في وجود الله ، لأن إثباته لا يقوم على الأدلة العلمية المعتمدة على الملاحظة والتجربة . ومن الثابت أن أهل أوربا على الخصوص انصرفوا عن العبادة في الكنائس ، وأن بعض الدول قامت تعارض الدين معارضة صريحة ، ونعني روسيا السوفيتية بالذات . ولكن الحرب الأخيرة غيرت النفوس وحولت الناس من المادية المسرفة في الإلحاد إلى شيء من الروحانية والإيمان بوجود قوة عليا تدير الكون : ولقد عادت روسيا السوفيتية إلى الاعتراف بالآديان .

لهذا السبب أحب أن أهتم في آذان المعجبين بالحضارة الأوروبية الحديثة أن يتمهلوا فلا تبهرهم بما فيها من بريق يخدع البصائر والأبصار ، وعليهم أن

يلتفتوا قليلا إلى القدماء فقد يجدون عندهم شيئا ينعهم ويفذى قوسهم .
قال الراغب إن الإنسان وجد لثلاث : لعمارة الأرض في قوله تعالى
« واستعمركم فيها » . وعليه تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه وغيره . والثاني
لعبادة الله . والثالث خلافة الله في الأرض ، كما قال تعالى « ويستخلفكم في
الأرض فينظر كيف تعملون » . وخلافة الله في الأرض هي الاقتداء
بالباري على قدر طاقة البشر في السياسة باستعمال مكارم الشريعة . ومكارم الشريعة
هي : الحكمة ، والقيام بالعدالة بين الناس في الحكم ، والاحسان والفضل
هذا الأسلوب من التفكير يختلف عن تفكير غلاة المتصوفة الذين أرادوا
إذلال الجسم وطلب الفقر والاقتصار على السعى إلى الآخرة . وقد أشار الراغب
الأصفهاني إليهم في خلال كتابه اشارات كثيرة ، ونعى عليهم هذا الاتجاه ،
وأنكر منهم هذا التفكير . ولقد أثر عن المسلمين بالباطل أنهم يزهدون في
الدنيا وينصرفون إلى الكسل ويدعون إلى التوكل . ولكننا نرى هنا أن
الراغب يقرر أن لا بد للإنسان من تحصيل مأكله وملبسه ومسكنه ، فليس له
سبيل إلى ثباته في الدنيا إلا بما يسد جوعته ، ويستر عورته ، ويقيه من الحر
والبرد ، على أن يكون ذلك من الوجه المباح ، كما قال تعالى « إن لك ألا تجشوع
فيها ولا تعري » .

فأنت ترى أنه يجمع بين الدين والدنيا ، بل يجعل الدنيا سبيلا إلى الآخرة .
وإنني أشارك المؤلف في الرأي بأن الاقتصار على الدنيا وحدها لا يصلح غاية
للإنسان . وأشار في أن إهمال الدنيا والإصراف في النظر إلى الدار الآخرة
مما لا يتفق مع الطبيعة البشرية .

قال في آخر الكتاب في فصل عنوانه مراعاة أمور الدنيا والآخرة : إن الناس
في ذلك ثلاثة أصناف ، صنف منهم المنهمكون في الدنيا بلا التفات منهم إلى العقبى .
وصنف مخالفون لهم غاية المخالفة يراعون العقبى من غير التفات منهم إلى مصالح
الدنيا . وصنف متوسط قد أعطوا الدارين حقهما ، وهذا الصنف هم عند
الحكماء الأفاضل ؛ لأن بهم قوام أسباب الدنيا والآخرة ، ولأن أمورهم مبنية
على الاعتدال الذي هو أشرف الأحوال .

فاذا كان الأمر كذلك فإن « التكسب في الدنيا ، وإن كان معدوداً من
المباحات لكنه واجب من وجه » . وأحب أن تنظر معي إلى النص السابق الذي

نقلته عن الراغب ، والذي يجعل التكسب واجباً ، فقد قيل إن عمر كان إذا نظر إلى دى سياء سأل أله حرفة ، فإذا قيل لا ، سقط من عينه . فإذا كان الراغب الأصفهاني يقرر مبدأ وجوب التكسب والعمل بالحرفة فقد سبق مذهب الشيوعية الحديث بقرون دون أن يدعى أنه أتى بمذهب جديد . والامر كما ترى واضح لا يحتاج إلى مذهب يقرره ، وثورة تعينه على القيام . ولعل الذين ينادون بالاشتراكية ، والعدالة الاجتماعية ، وهذه الألوان الجديدة من المذاهب ينظرون فيما قال صاحبنا وسوف يجدون جديدهم قديماً .

٣

ما الإنسان ؟ أهو جسم فقط ، أم روح فقط ، أم جسم وروح ؟ أكبر الظن أن الراغب استقى كلامه في النفس الإنسانية من أفلاطون مع إضافة بعض الحكم الإسلامية . وعنده « أن وجود النفس لا يحتاج إلى أن يدل عليه لوضوح أمره » . وليست هذه القضية في مثل الوضوح الذي يؤكد . ومن المعلوم أن ديكارت الفيلسوف شك في وجود كل شيء حتى وجود نفسه ، فقد يكون هناك شيطان ماكر يخدعه . وانتهى من الشك إلى إثبات وجود نفسه المفكرة في جملته المشهورة « أنا أفكر ، إذاً أنا موجود » . أما فلاسفة المدرسة الانجليزية من أمثال هوبس وهيوم ، فقد شكوا في وجود النفس ، وأنكروها إنكاراً ، وقالوا هي أسطورة جاءت إلينا مع علوم القدماء ، وليس لها سند من الوجود الواقعي . وانتهى علماء النفس المحدثين لا إلى إنكار النفس ولا إلى إثباتها بل قالوا هذه مسألة تدخل في باب الفلسفة وليس للعلم أن يسأل عنها ، وإنما يبحث علم النفس في السلوك الظاهر للإنسان .

ومن النظريات المشهورة المتصلة بالإنسان نظريته الثنائية التي تجعل الجسم في ناحية ، والنفس في ناحية أخرى . ومذهب ديكارت يؤكد هذه الثنائية تأكيدهم شديداً . ويذهب الراغب الأصفهاني هذا المذهب ، فعنده أن ماهية الإنسان جسم ونفس ، بصر وبصيرة . وكما قال بعض الحكماء « قد ركب الله تعالى الإنسان تركيباً محسوساً معقولاً على هيئة العالم ، وأوجد فيه شبه كل ما هو موجود في العالم » .

وقوى الإنسان هي الغذاء والحس والتخيل والنزوع والتفكير . والفكر أعلاها ، وله أفعال تختص به هي الروية والفكر والاعتبار والقياس والفراسة . والفكر استخراج الغوامض ، وبالاعتبار تحصل التجربة ، وبالقياس ارتباط المجهول بتوسط المعلوم ، والفراسة الاطلاع على الامرار . ولقد سبق أن شبه أفلاطون النفس الانسانية بعربة يجرها جوادان ، أحدها مطيع والآخر جوح ، ويقودها سائس . أما السائس فهو العقل ، وأما الجوادان فأحدهما القوة الشهوية ، والآخر القوة الغضبية . ويشبه الراغب الإنسان في بدنه ، بمثل وال في بلده ، وقواه وجوارحه بمنزلة صناع وعملة ، والعقل له بمنزلة مشير عالم ناصح ، والشهوة فيه كعبد سوء جالب للميرة ، والحمية له كصاحب الشرطة . والعبد الجالب للميرة خبيث ما كره ، يتمثل للوالى بصورة الناصح ، وفي نصحه ذنب العقرب ، ويعارض الوزير في تدبيره . وكما أن الوالى في مملكته متى استشار في تدبيراته وزيره دون هذا العبد الخبيث ، وأدب صاحب الشرطة وجعله مؤتمراً لوزيره استقام أمر بلده ، فكذا النفس متى استعانت بالعقل في التدبير ، وأدبت الحمية ، وسلطته على الشهوة وقواها استتب أمرها . ويرجح الراغب الأصفهاني إمكان تغيير الخلق ؛ فقد روى في المأثور « حسنوا أخلاقكم » . وأن الله خلق الأشياء على ضربين أحدهما بالفعل ولم يجعل للعبد فيه عملاً كالسما والارض . والثاني خلقه خلقة وجعل فيه قوة ترشح الإنسان لا يكمله وتغيير حاله ، وإن لم ترشحه لتغيير ذاته . وهذه هي نظرية التطور نحو الكمال التي يتغنى بها المحدثون . وقد أشار إليها الراغب إشارة أخرى في آخر الكتاب بمناسبة الأفعال وضروبها فقال عن السموات والارض إن الله أبدعها إبداعاً « ولم يخلقها خلقة ناقصة في ابتداء نشأتها ثم كملها شيئاً فشيئاً كالحيوان والإنسان والنبات » . ونحن لا ندعى أن هذه النظرية شبيهة كل الشبه بنظرية التطور الحديثة ، ولكن فيها ما يشعر بأن الأنواع لم تخلق من أول الأمر خلقة كاملة ، فهي إذاً ليست ثابتة أو مغلقة كما كان يعتقد المناطق وعلى رأسهم أرسطو .

ومن الأسباب الدالة على إمكان تغيير الخلق أنه لو لم يكن كذلك لبطلت فائدة المواعظ والوصايا ، والوعد والوعيد ، والأمر والنهي ؛ ولما جوز العقل أن يقال للعبد لم فعلت ولم تركت . ثم إننا قد وجدنا في بعض البهائم

هذا ممكناً ، فالوحشى قد ينتقل بالعادة إلى الناس ، والجامح إلى السلاسة . غير أنه إذا كان في الإمكان تغيير الخلق ، فللوراثة أثر في الطباع تجعل تغييرها صعباً . وفي ذلك يقول إن « الأخلاق نتائج الأمزجة ، ومزاج الأب كثيراً ما يتأدى إلى الابن كالألوان والخلق والصور . ومن أجل تأديها إليه قال صلى الله عليه وسلم « تَخَيَّرُوا لِنُطْفِكُمُ الْإِكْفَاءَ » .

والخير ثلاثة : نافع ، وجيل ، ولذيذ . وسبيل الوصول إلى السعادة هو الجمع بين مختلف الفضائل ، خصوصاً الفضائل النفسية . والمال والأهل ، والعز ، وكرم العشرة هي الأشياء النافعة في بلوغ الفضيلة الحقيقية ، والسعادة الآخروية . وبعد لا أريد أن أخلص لك جميع فصول الكتاب ، وأن أعلق على كل رأى جاء فيه ، ولكنى أقول إن المؤلف راقتى بحسن تفكيره ، ونظرته الواسعة إلى المجتمع الإنساني ، حتى لتجد فيه بدايات للبحث في الصناعات وأقسامها كما فعل ابن خلدون من بعد ، ولأنه لم يكن مسرفاً في اتخاذ جانب واحد من جوانب الحياة بل تحرى الحكمة والعدالة ، فجاء كتابه سفرأ يصح أن يكون من الأسفار الخالدة في الأخلاق .

أحمد فؤاد الأهواني